

الفصل الثاني : الفكر السياسي الغربي والصراع الديني

المبحث الأول: الفكر السياسي الانساني المسيحي الغربي

مثل هذا الفكر في عصر النهضة اتجاهاً:

الأول: ارتبط بالكنيسة الكاثوليكية البابوية وتبنى استراتيجية الاصلاح الديني بالحفاظ على وجود الكنيسة واصلاحها من الداخل، وتجسد في الفكر السياسي للانسانين المسيحيين الغربيين الكاثوليك المتميزين بنزعتهم الانسانية من جهة وارتباطهم بالكنيسة من جهة أخرى.

الثاني: انفصل عن الكنيسة الكاثوليكية البابوية وتبنى استراتيجية الاصلاح الديني بحل الكنيسة ووضع نهاية لها. وتجسد هذه الاتجاه في الفكر السياسي لحركة الاصلاح الديني البروتستانتية المتميزة بنزعتها الانسانية من جهة وقطيعتها مع الكنيسة الكاثوليكية البابوية من جهة أخرى.

أهم الأفكار السياسية للفكر الانساني:

١- يعد الفكرون الانسانيون بصورة عامة العلامة المميزة لعصر النهضة، دون ان تعني تسميتهم في جوهرها حب الانسانية بصفقتها المطلقة، وإنما تعني: (تمجيد الانسان بذاته عبر الاهتمام المتزايد بالحياة الانسانية كما يمكن ان يعيشها الانسان على الأرض في حدود الزمان والمكان).

٢- بات الانسان يحتل مركز الاهتمام في عصر النهضة، ومركز الخليقة وقلبها الرابط الذي يربط المخلوقات كلها.

٣- وعلى اثر ذلك انحلت الثنائية التي تزعم بان منازع الجسد إثم بحق الروح، ليحل محلها الاعتقاد بأن حياة الجسد ومنزعه لايمكن ان تكون إثمًا، وانما هي خير، وكلاهما يجتمعان وينصرهان في وجود الانسان الواحد وحياته.

٤- اخذوا على عاتقهم مهمة صياغة التصورات الدينية للنزعة الانسانية ، وما كان يعنيه في الدين هو الرجوع الى الايمان الحقيقي الذي يتيح للانسان القدرة على اكتشاف امكاناته برمتها، ويقوم هذا الايمان الحقيقي على اساس من مسؤولية المسيح والمسيحيين نحو العالم الدنيوي.

٥- وتولد عن ذلك: ازالة التمايز بين القديسيين والناس العاديين .

٦- جعلت هذه النزعة من الكنيسة محلا للايمان البسيط، وان كانت تبدو متشددة في موقفها من المؤسسات الكنسية كما كان حالها آنذاك، حيث وجهت اليها اتهامات وطالبت بتطهيرها.

توماس مور ١٤٨٠-١٥٣٥

(المجتمع الفاضل)

ولد في انكلترا وجاءت افكاره السياسية في كتابه يوتوبيا تجسيدا لواقع بلاده في الحقبة التي عاشها، وتربى في بيت رئيس الاساقفة الذي كان في الوقت نفسه بدرجة الوزير الاول للملك هنري السابع، وتمكن من دراسة الاغريقية والقانون ، ويصبح محاميا شهيرا في مدينته، وانتخب عضوا في البرلمان وفي المجلس الخاص للملك هنري الثامن، ليصبح لاحقا مستشاره الاول، ليعدم بعد ذلك بقطع رأسه بعد اختلافه مع الملك في سياسة الدينية بوجه الخاص. وشهدت انجلترا مع مجيء القرن الخامس عشر تحولات اجتماعية كبيرة:

- امتزج فيها انهيار التجمعات القروسطية، بسقوط الأسس التي تقوم عليها طمانينة الفلاح في تلك التجمعات بفعل تحرره من ارتباطه في الأرض.

- ظهور الفلاح الحر مع تطور التجارة تطورا تجاوزت معه الاقتصاد القائم على انتاج المحاصيل الضرورية.

- ظهور سياسة التسييج التي حولت اغلب المزارع في انجلترا الى مراعي لا تحتاج الا الى عدد قليل من الفلاحين للعناية بها مما اقتضى تسريح ما بقي منهم من مزارعهم لتستقبلهم المصانع بشروطها السيئة أو تأكلهم البطالة وتجعلهم وأسره عرضة للموت جوعا.

- وارتبط هذا التطور بظهور التجارة والصناعة في انجلترا، وظهور الطبقة العمالية التي تكونت مادتها الاساسية من الفلاحين الذين تركوا الارض بفعل سياسة التسييج، والحرفيين الذين تدهورت احوالهم المادية بظهور الصناعات الميكانيكية مما افقدهم ورشهم الخاصة.

-خلف المعاناة بدأت تنهض طبقة برجوازية قوية واثقة من نفسها، استطاعت ان تعدل الخارطة الاجتماعية القائمة، وتتحالف مع بعض الاسر الحاكمة لتحقيق تطلعاتها السياسية.

- كان هذا واقع انجلترا في في الحقبة التي عاش فيها توماس مور، واقع الياس والأمل، النزاع والتوافق، الثروات الضخمة والبؤس المتنامي، والمثالية الخلقية والفساد الكبير، والتدهور في المجتمعات المحلية والعالمية (الكنيسة) والتصاعد في النزعة القومية/ الوطنية التي شكلت بالنسبة للبرجوازية إطارا مناسباً للتطور والنمو.

يوتوبيا توماس مور

كتب توماس مور كتاب يوتوبيا عام ١٥١٥ في مرحلة نضجه وتكامل مواهبه، ونشره لأول مرة باللاتينية، والاطار العام لهذا الكتاب خيالي محض، يتحدث فيه مؤلفه عن جزيرة وهمية، ورسم خياله تفاصيلها كلها بما في ذلك تسميتها، حيث ان عنوان الكتاب يعني: **(لا مكان، المكان الخيالي)**، ويرجع تعلق توماس مور بهذه الاجواء الخيالية الى عاملين؟هما:

١- غلبة الاجواء الخيالية على عصر النهضة وفكره بفعل الاكتشافات الجغرافية وما تحكيه كتب الرحلات عن غرائب العوالم الجديدة التي يزورها الرحالة.

٢- توفر الأجواء الخيالية **الحماية** للكاتب بنشر اعماله دون خشية من ملاحقة او انتقام، فلولاها لكان من الصعب أن ينشر مور أفكاره الجريئة، ويامن على حياته بعد نشرها، وبفضلها لم يثر الكتاب قلق احد على أحد على حد تأكيد جان توشارد وجماعته.

ينقسم الكتاب الى قسمين، الأول عرضا لسلبيات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في انجلترا والطول المقترحة لتجاوزها، والحل الأكثر ترجيحاً بينها. ويتضمن القسم الثاني من الكتاب وصفا للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في جزيرة يوتوبيا، كما تخيلها المؤلف، والتي تبدو حياة انموذجية مثالية تخلو من سلبيات الحياة في انجلترا.

يكشف مور في القسم الأول من الكتاب عن معاناة المجتمع الانجليزي من البؤس العام والشامل على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والديني وذلك للأسباب التالية:

١-العدد الكبير من النبلاء العاطلين مثل ذكور النحل والذين يعيشون على عمل الغير وكدهم، بتأجير أراضيهم للآخرين. وهؤلاء لا يكتفون بالعيش في حالة من التعطل، بل ويجرون ورائهم أيضا قطيعا ضخما من الخدم العاطلين فعليا، ممن م يتعلموا قط حرفة يكسبون عيشهم منها، والذين ما أن يفتقر سادتهم أو يموتون حتى يطردوا شر طردة، ليتضوروا جوعا في المواسم العجاف أو يصبحوا مجرمين.

٢-سياسة التسييج التي رمت بآلاف الفلاحيين خارج حقولهم لتحويلها الى مراعي للمواشي، فحولتهم الى عاطلين مالم يوفقوا في العثور على عمل في المدن.

٣-سياسة الملك المهمة بمصالحه الخاصة أكثر من اهتمامه بمصالح شعبه التي يتوجب عليه السهر عليها والاهتمام بها قبل أي شيء آخر، لأن فقر شعبه قد يكون سببا لثورته عليه.

٤-النظام الكهنوتي التقليدي للمؤسسة الدينية الكنسية الذي يحتضن رهبانا ليسوا في رأيه إلا جمعا من المشردين العاطلين عن العمل

أفكار توماس مور السياسية:

ان نقد توماس مور لمؤسسة الدينية كان بدافع الاصلاح لخشيته من الخروج عليها واعتقادا من بأن من شأن الخروج أن يكدر صفو السلام، مما وضعه في مواجهة مع داعية الاصلاح الديني البروتستانتى مارتن لوثرالذي كان يتطلع الى القيام بالاصلاح الديني من خارج الكنيسة.

- ناقش عدد من المقترحات واعترض عليها ومنها تقييد قدرة الاغنياء ومعالجة السلبيات عن الطريق القوانين، والاصلاح من داخل الدولة بتولية مناصبها العليا لانا من مخلصين، وهذا الاخير غير ممكن لعدم استعداد الملوك اصلا لتقبل مشورة هؤلاء المخلصين.

- والحل برأيه هو الغاء الملكية الاقتصادية الخاصة، لأن وجود هذا النظام هو مصدر كل السلبيات القائمة وسببها، وان الاخذ بنظام الملكية العامة بدلا عن الملكية الخاصة هو وحده القادر على تحقيق الصالح العام، **وعلى ذلك بالاسباب التالية:**

- ١- ان الاخذ بنظام الملكية الاقتصادية العامة يتطابق مع النزعة المسيحية لأن المسيح سر بمشاركته لتلاميذه في حياتهم.
- ٢- ان نظام الملكية الاقتصادية العامة مازال قائما في اكثر المجتمعات المسيحية اصالة.

-يتخذ التنظيم السياسي في يوتوبيا طابعا تمثليا نيابيا، والحاكم منتخب ويشغل منصبه مدى الحياة ما لم يتم عزله بسبب ميله الى الطغيان. ولاتشغل العلاقات بين الدول حيزا كبيرا من اليوتوبيا بعد ان ركز مور جل اهتمامه على ما يجري داخل الدولة، أما الحرب كنوع من النشاط الانساني، فلا تليق الا بالوحوش على تعبيره، لذلك يبغض اليوتوبيون الحرب أشد البغض، ولا يعتبرون ان بينها وبين المجد علاقة. وانهم لا يخضون الحرب الا إذا اقتضت الضرورة من اجل حماية أراضيهم، أو صد عدو عن أراضي اصدقائهم، او شفقة على قوم يرزحون تحت وطأة القهر والأرهاب لتخليصهم بقوة السلاح من نير طاغية مستبد.

-يقر مور بإمكانية وجود أديان مختلفة في الجزيرة، قد تبدو عقائد بعضها غير مقبولة، ولكن اكثر اليوتوبيين لا يؤمن بها، بل يؤمنون بوجود كائن اعلى واحد خالق للكون مع تأكيدهم بالقوت نفسه على حرية الأديان، ويتم انتخاب رجال الدين في يوتوبيا عن طريق الانتخاب، ولا يقتصر مهماتهم على الأمور الإلهية، إنما تشمل كذلك الأمور الانسانية كالعناية بالامور الاخلاقية ورقابة المدن.

-ان التأثير الاجتماعي لكتاب يوتوبيا يتجاوز تأثيره الأدبي الى حد كبير، حيث وجدت أفكارها انعكاساتها لدى العديد من المفكرين، مثلما وجدت طريقها في المكسيك الى بعض الاداريين والقسس الاسبان الذين عملوا جاهدين على إقامة يوتوبيا او على الأقل الاهتداء بها.

-وتبقى في النهاية تعبيرا عن طموحات عاجزة لقوى اجتماعية عاجزة، والعاجز لا يجد ملجا افضل من الخيال يتلمس فيه الطمانينة.

مصادر يوتوبيا

١- يؤكد جان توشارد وجماعته أن كتاب توماس مور (يوتوبيا) يدين بالكثير لكتاب أفلاطون (الجمهورية)، بحكم الحماسة التي تميز بها الإنسانيين المسيحيون للحضارة اليونانية وتراثها. وينعكس ذلك في:

- أخذ مؤلف يوتوبيا بأساليب أفلاطون المنهجية في كتاب الجمهورية.

- أخذ مؤلف يوتوبيا بأسلوب أفلاطون الحوار في كتاب الجمهورية.

- أخذ مؤلف يوتوبيا بمضمون كتاب الجمهورية لأفلاطون بتبنيه من جهة لفكرة الملكية العامة، وتأكيده من جهة أخرى على ضرورة ارتقاء الحكام إلى مستوى الفلاسفة.

ولكن يبين المفكرين وكتابيهما اختلافات أيضاً تتمثل في:

- إن مجتمع جمهورية أفلاطون يمثل جماعة حرة أرستقراطية تعيش على عمل العبيد، وشيوعيته قاصرة على هذه الجماعة، بينما يخلو مجتمع مور من الطبقات والملكية الاقتصادية فيه ملكية عامة فعلاً بقدر ما يعود كل شيء فيه إلى مجموع الشعب.

- إن مجتمع جمهورية أفلاطون يتميز بفقدان الأسرة فيه لوحدها بفعل تطبيق مبدأ مشاعية المرأة، بينما يقوم مجتمع يوتوبيا مور على وجود أسرة ذات أسس متينة تحكمها الأخلاق التقليدية والضبط الصارم. وربما يمكن القول بأن التنظيم الاجتماعي في هذا المجتمع يقوم على أساس السلطة الأبوية (باترياركية) طالما أن رب الأسرة ينفرد فيه ببحث تأديب زوجته وأطفاله وتدبير كل شؤونهم فلا يحتاجون نتيجة لذلك إلى الرجوع إلى العدالة العامة إلا في حالة جسامة الجريمة.

٢- تأثره بعقيدته الدينية بحكم كونه مسيحي لنعكس أفكاره جوانب عديدة من عقيدته، ولكن المسيحية التي خضع مور لتأثيرها هي المسيحية النقية المشحونة بشحنة صوفية أوحى لها بها القديس أوغسطين صاحب كتاب (مدينة الله) لينتهي به ذلك إلى الإيمان بضرورة العودة إلى المصادر الأصلية للمسيحية. وكان كاثوليكيًا متشدداً إلى الحد الذي دفع معه حياته ثمناً لتمسكه بكاثوليكيته، فالدين عنده بمثابة الإناء المقدس الذي يحافظ على العدل نقياً في مواجهة البؤس الفعلي.

٣- يمكن ايضا القول ان الاكتشافات الجغرافية تمثل مصدرا بخر من مصادر فكر مور الذي قرأ ما كتبه الايطالي أمريكو فيرسبوتشي.

المصادر:

- ١- عبد الرضا الطعان، علي عباس مراد، عامر حسن فياض، ط١، موسوعة الفكر السياسي عبر العصور، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٥.
- ٢- كوينتن سكنر، أسس الفكر السياسي الحديث، عصر النهضة، ج١، ط١، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ٢٠١٢.
- ٣- جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، ط٢، ترجمة علي مقلد، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣.
- ٤- كوينتن سكنر، أسس الفكر السياسي الحديث، عصر الاصلاح الديني، ج٢، ط١، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ٢٠١٢.
- ٥- فرانسو شاتليه، تاريخ الايديولوجيات-القرن ٧-١٩، ج٢، ترجمة انطون حمصي، وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٧.